

مقدمة: رجل التعليم العالي المريض⁽¹⁾

في التعليم، كما هو الحال في أي مجال آخر، البقاء للأصلح.

تشارلز وليام إليوت Charles W. Eliot، «ما هو التعليم الليبرالي What Is a Liberal Education» (1884)

النزعة الإنسانية humanism في مقابل جهاز «بست باي Best Buy»

في ربيع عام 2012، كانت كلية الفنون الليبرالية التي كنت أدرّس فيها آنذاك تستعد لمراجعة نهجها في التعليم العام. كانت المؤسسة تتباهى بمجموعة متشابهة من المتطلبات التوزيعية لعقود من الزمن؛ ويهدف قادتُها، الذين يهتمون جزئيًا على الأقل بإمكاناتها التسويقية، إلى تغيير المساق الدراسي، على أمل أن يجذب المسار الأحدث والأكثر ابتكارًا الطلابَ المحتملين. وعلى الرغم من أن الكلية كانت قد بدأت للتو عملية المراجعة، فإن نظام البريد الإلكتروني الخاص بأعضاء هيئة التدريس كان يعج بالترقب بالفعل، حيث قدم العديد من الأساتذة رؤاهم حول أفضل طريقة للمضي قدمًا. أرسل أحد أعضاء هيئة التدريس، وهو أستاذ قديم في قسم الاقتصاد، لزملائه خطابًا مطوّلًا حول المنهج الدراسي المثالي للتعليم العالي. لم تكن مقارنته جديدة ولا جريئة؛ ففي جوهرها تُجادل عن نسخة مبسطة من النظام القائم بالفعل في الكلية. لكن هناك فقرة واحدة في خطاب أستاذ الاقتصاد أحدثت ضجة مخزية في حدود الحرم الجامعي. فقد كتب في سياق تأملاته: «أعتقد أننا يجب علينا على الأقل أن نناقش

(1) على غرار «رجل أوروبا المريض»، اللقب الذي اشتهرت به الدولة العثمانية بعد الهزائم التي أصابتها من الدول الأوروبية فأفقدتها هيبتها. والمقصود هو الوضع الحرج أو المشكل للإنسانيات في التعليم العالي، الأمريكي بالخصوص (المترجم).

مسألة ما إذا كان ينبغي مطالبة كل طلابنا بتعلم لغة أجنبية. من جهتي، أفضل ألا يُسنَّ شرط اللغة الأجنبية إلا عندما يتضح أنها جزء لا يتجزأ من طبيعة الدراسات التي يدرسها الطالب». وفي غمار خوضه في الجدل، قدّم مسوغاً لرأيه: «حقيقة أن اللغة الإنجليزية تبدو الآن لغة عالمية (أعلم أن هذا ربما يكون نتيجة للميول الإمبريالية الأمريكية) تُحدِّد كثيراً من الحاجة إلى مطلب اللغة الأجنبية. رأيت بالأمس في متجر «بست باي Best Buy» جهازاً يمكن الشخص من ترجمة لغته فوراً إلى عدد من اللغات المختلفة، ثم تُقرأ الترجمة على الآخرين. ومن الواضح لي أنه لا يبعد أن نحمل في المستقبل مثل هذا الجهاز معنا في رحلاتنا، مما يجعل التواصل الفوري ممكناً أينما كنا».

كما قد يتصور المرء، فإن هذا الخط الحجاجي شجع على استجابة قوية من جانب الإنسانيين المتضايقين. إذ كيف يمكن لأستاذ في كلية الفنون الليبرالية أن ينكر أهمية دراسة اللغة؟ وسخر أحد أساتذة اللغة الإنجليزية الغاضبين في الكلية من فكرة أن حمل «مترجم محمول» يساعد على تحويل طلاب الكلية إلى «مواطنين عالميين». وسط هذه الردود السريعة الحماسية، قرر أحد أساتذة القسم الفرنسي تقديم رد أكمل. فقد كتب، متفاعلاً مع الاستفزاز الأوّلي في نظام البريد الإلكتروني الخاص بأعضاء هيئة التدريس، ما يلي: «في الواقع تعلم لغة أخرى يجعلك أذكى. وهذا ليس ادعاءً، بل حقيقة أثبتتها العديد من الدراسات العلمية». وأرفق مقالة من صحيفة «ذا نيويورك تايمز The New York Times» تناقش هذه الدراسات، وأكد قائلاً: «لا أعرف مجالاً ثبت أنه يحسّن الإدراك العام تحسناً ملموساً إلا اللغات، والموسيقى إلى حد ما». وقد انقضّ أستاذ الاقتصاد على هذا الرد فقال: إن صح أن دراسة اللغات الأجنبية تجعل الطالب الجامعي أذكى فإنه سيقبل أن الكلية يجب أن تحتفظ باشتراط دراسة لغة أجنبية على كل الطلاب. لكن الدراسات التي استشهد بها أستاذ الفرنسية لم تقس في الحقيقة الفوائد الإدراكية لدراسة اللغة الجامعية؛ وإنما أكدت الدراسات المذكورة (والدراسات الأخرى التي قدمها زميلُه لاحقاً) الفوائد التي تعود على ثنائيي اللغة الذين تعلموا اللغات في مرحلة الطفولة. كتب أستاذ الاقتصاد: «وعلى هذا، إذا كانت القدرة الإدراكية الأكبر لا تتحقق إلا لدى الذي يتحدثون لغتين منذ الطفولة، فمن الواضح أنه لا يمكن استخدام هذه الحجة لتسويغ مطالبة الطلاب الجدد الذين لم يتقنوا لغتين في

طفولتهم بدراسة لغة أجنبية. ولذا، هل تستطيع إحالتي إلى الدراسات التي تثبت ادعاء أن تعلم لغة ما في وقت لاحق من حياة المرء يؤدي أيضًا إلى زيادة قدرته الإدراكية؟». لقد تبين عجز الأستاذ الفرنسي عن ذلك. ورغم أن أستاذ الاقتصاد تخلى في نهاية المطاف عن هجومه على قيمة دراسة اللغات، إلا أنني شعرتُ أن تخليه كان بدافع حرصه على الحفاظ على الزمالة واللياقة. هو أعرب عن وجهة نظره، لكنه أثار استياء الآخرين. ولذلك قرر الانسحاب. باختصار: لم يقنعه أحد.

لقد تركني هذا الأخذ والرد في حيرة شديدة. لماذا قرر أحد زملائي الإنسانيين تسويق قيمة العمل الذي قضى فيه عمره على أساس مجموعة من الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع؟ لماذا لم يدرك أنه بتجاوبه مع أستاذ الاقتصاد بهذه الطريقة فإنه يعرض نفسه للإخفاق؟ ولماذا لم يتمكن زملاؤه (وأنا منهم) من حشد المزيد من الحجج الأكثر إقناعًا؟ هل كانت حفنة من الاختبارات منزوعة السياق تقريبًا للفوائد الإدراكية المزعومة هي الشهادة الوحيدة على قيمة دراسة لغات العالم؟ هل يمكن بسهولة رفض قرون من التاريخ التعليمي الغربي الذي ركز على مثل هذه المواد باعتباره عفا عليه الزمن ومتصلبًا؟ في الصراع الذي أثاره زميلنا في قسم الاقتصاد، لا ريب أن العديد من أعضاء هيئة تدريس الإنسانيات في الكلية تجاهلوه باعتباره رجلًا لديه جلافة في الذوق. ولكن إذا كانت دراسة اللغات تعتمد على أساس «فوائدها الإدراكية» فقط، فأين الفظاظة في تحدي قيمتها؟ لقد تمنيت في نفسي أن تكون هناك طرق أفضل للدفاع عن اللغات، والإنسانيات على نطاق أوسع.

إفلاس في الكليات والجامعات

في السنوات البينية، لا بد أن العديد من الإنسانيين كان لديهم آمال مماثلة لأملي. إذا افترضنا صدق وسائل الإعلام، فإن هذه الآونة ليست مشجعة للإنسانيات في التعليم العالي، إذ يبدو أنه لا يمر أسبوع فيها دون صدور تقارير في الصحافة الشعبية تنذر بانهياف وشيك للإنسانيات. فمثلًا، في مقال نُشر عام 2013 في صحيفة «ذا نيو ريبابليك» (The New Republic)، ترثم جوردون هنتن Gordon Hutner ويفصل محمد بما يلي: «لعلكم سمعتم عدة مرات عن أن الإنسانيات في «أزمة». الأزمة حقيقية»⁽¹⁾. وأشار

(1) Hutner and Mohamed 2013. Cf. Hutner and Mohamed 2016a: esp. 3.

المؤلفان إلى الانخفاض الكبير في التمويل العام لمؤسسات الدولة للتعليم العالي. وزعموا أن هذا قد سبب في الدوائر الإدارية هوسًا ضارًا بتوليد الإيرادات - وهو هوس يميز الإنسانيات⁽¹⁾. ورغم أن المراقبين الآخرين يقدمون استنتاجات مختلفة بشأن أسباب الكارثة، إلا أن الكثيرين اتفقوا مع هتزر ومحمد في أن الإنسانيات في الولايات المتحدة تمر بأزمة⁽²⁾. ومما لا شك فيه أن التقارير رفيعة المستوى التي أصدرتها جامعة هارفارد والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم ساعدت في تغذية هذه السردية⁽³⁾.

على الرغم من أن كُتَّابًا آخرين يقرون عادة بوجود شعور بالكآبة بين أعضاء هيئة تدريس الإنسانيات في جميع أنحاء البلاد⁽⁴⁾، فإن هؤلاء الكُتَّاب طعنوا في فكرة أن الحقوق الإنسانية تعاني من أزمة⁽⁵⁾. فمثلًا، قالوا إن الشعور بالنكبة يطارد الإنسانيات في أمريكا منذ أمد بعيد⁽⁶⁾. وأشار آخرون إلى أن التقارير التي تعلن عن زوال الحقوق الإنسانية من الحرم الجامعي تعتمد عادة على إحصائيات تُبرز انخفاضًا في النسب المئوية للتخصصات

(1) هناك انتقادات كثيرة للطابع الاستهلاكي «الليبرالي الجديد» للتعليم العالي الأمريكي المعاصر. انظر مثلًا:

Verene 2002: xi-xiii; Kirp 2003; Bousquet 2008; Donoghue 2008; Newfield 2008: esp. 9-10, 20, 25; Schrecker 2010: esp. 4, 100-5, 154-224; Di Leo 2013; Jay 2014: 7, 23-24; Roth 2015: 1-2.

(لكن راجع ص6، حيث يمتدح المنهج الدراسي المختار بحرية، وص72-73، حيث يثني على تشارلز إليوت)؛ Prose 2017. يرى بروكتور (2014: 26-28) أن كل الدفاعات عن التعليم الليبرالي اليوم تركز عليه باعتباره تريكًا للرأسمالية الصناعية وتقسيم العمل.

(2) على سبيل المثال:

Newfield 2008: 19; Menand 2010: 16, 59-92; Gaggi 2011; Harpham 2011: 15-16, 18, 22; Jay and Graff 2012; Klinkenborg 2013; MacDonald 2014; Bauerlein 2015: 32-33; Jacobs 2015; Geiger 2016; Kleinman 2016: 68; Prose 2017; Sewall 2019. Cf. Nussbaum 2010: 17-18, 124-25; Ferrall 2011; Gutting 2013; Saul 2013; Melin 2016: 2016; McCumber 2016; Nikopoulos 2017.

(3) انظر 2013 Armitage, Bhabha, et al. (الذي يركز على الفنون والإنسانيات)؛ Brodhead, Rowe, et al. 2013 (الذي يركز على كل من الإنسانيات والعلوم الاجتماعية). حول هذه التقارير انظر مثلًا al. 2013 Connor 2013b; Saul 2013.

(4) يؤكد الكثيرون على المزاج الكئيب السائد بين الإنسانيين المعاصرين، على سبيل المثال:

Berman 2006-7: 8; Klinkenborg 2013; Saul 2013; Belkin: 2016; Jaschik 2017. Cf. Armitage et al. 2013; Brodhead et al. 2013: 9; Bérubé and Ruth 2015: 10.

(5) انظر مثلًا:

Armitage et al. 2013: 7-11; Frantzman 2013; Tworek 2013; Jay 2014: 7-17; Bérubé and Ruth 2015: 1-25; and n. 8.

(6) على سبيل المثال:

Gaggi 2011; Harpham 2011: 15; Jay 2014: 1-2, 8.

الإنسانية. وبما أن السنوات الماضية شهدت تنامي العديد من التركزات المهنية الجديدة في التعليم العالي الأمريكي، فإنهم يؤكدون أن التشديد على هذه النسب مضر⁽¹⁾. على الرغم من أهمية هذه الادعاءات، يظل من الصعب أن نستنتج أن وضع الإنسانية في التعليم العالي الأمريكي جيد. إن تتبع النسب المئوية لخريجي الإنسانية من طلاب الجامعات مع مرور الوقت قد يقدم بالفعل صورة غير موثوقة⁽²⁾. لكن مثل هذه الأرقام تؤثر بلا شك على العديد من عمداء الكليات والجامعات، الذين يتخذون القرارات بشأن تعيين أعضاء هيئة التدريس بل ويحلون البرامج بناءً على هذه التدابير (غير الموثوقة في كثير من الأحيان) وغيرها من المرتكزات. فمثلاً، عادة ما يشير قادة المؤسسات إلى عدم شعبية تخصصات معينة وهم يسوّغون إغلاق أقسام الإنسانية المختلفة. ومحاولات الإغلاق الأخيرة لبرامج الإنسانية في جامعة ولاية نيويورك State University of New York في ألباني Albany، وجامعة بيتسبرغ Pittsburgh، وجامعة ولاية نيويورك في ستوني بروك Stony Brook، وكلية ميلز Mills College، وجامعة ويسكونسن Wisconsin في ستيفنز بوينت Stevens Point، وكلية ماكدانيال McDaniel College، وكلية كارول Carroll College، لم تسفر إلا عن اشتداد انزعاج الإنسانيين في جميع أنحاء البلاد⁽³⁾. وقد شكك السياسيون الأمريكيون

(1) قُدمت هذه الحجة على نحو أكثر فعالية من قبل Schmidt 2013a and b. وانظر أيضاً anonymous (2013; Connor 2013a, b, and c; Tworek 2013). لكن شميدت (2018) غير رأيه مؤخراً بشأن «أزمة» الإنسانية، التي يعتبرها الآن حقيقية.

(2) ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن هذه النسب مستمرة في الانخفاض. انظر مثلاً Jaschik 2017 للاطلاع على بعض أحدث الأرقام. وراجع Edwards 2016.

(3) حول الوضع في جامعة ولاية نيويورك في ألباني انظر مثلاً Armitage et al. 2013: 29 n. 17; Hutner and Mohamed 2013. وعن إلغاء العديد من برامج الدراسات العليا في الإنسانية في جامعة بيتسبرغ انظر مثلاً Armitage et al. 2013: 29 n. 17; Hutner and Mohamed 2013. وحول الاقتطاعات المقترحة للإنسانية في جامعة ولاية نيويورك في ستوني بروك انظر مثلاً Flaherty 2017b. وعن الإلغاء المقترح لمختلف أقسام الإنسانية والعلوم الاجتماعية في كلية ميلز انظر مثلاً Seltzer 2017. وحول خطة إلغاء مختلف أشكال برامج الإنسانية والعلوم الاجتماعية في جامعة ويسكونسن في ستيفنز بوينت انظر مثلاً Dix 2018; Flaherty 2018. وحول إلغاء خمسة محاور أساسية وثلاثة محاور ثانوية في كلية ماكدانيال -جميعها في الإنسانية والفنون- راجع Jaschik 2019c. وحول اقتلاع خمسة محاور أساسية وعشرة محاور فرعية في كلية كارول (بما في ذلك الدراسات الكلاسيكية ودراسات الأخلاق والقيم) انظر Jaschik 2019a.

البارزون - من اليسار واليمين على حد سواء - علناً في قيمة شهادات الإنسانية. كل هذا يمكن أن يقود المرء إلى اعتقاد أن الحقول التي كانت تُعدّ في السابق جوهر تعليم الفنون الليبرالية (مثل الفلسفة والكلاسيكيات) على وشك أن يُقضى عليها⁽¹⁾. علاوة على ذلك، أصاب أولئك الأكثر تشاؤماً بشأن مستقبل الإنسانية في إشارتهم إلى أن المتفائلين عادة ما يعملون في أقسام اللغة الإنجليزية أو التاريخ - الحقول المرتبطة بالإنسانيات التي قد تشهد انخفاضاً في معدلات الالتحاق بها ولكنها راسخة بالقدر الكافي في الغالبية العظمى من مؤسسات التعليم العالي الأمريكي بحيث لا يترصد بها أي تهديد وجودي. فمثلاً، ليس لدى أعضاء هيئة التدريس الذين يدرّسون اللغات الأجنبية سبب وجيه يعكس هذا الشعور بالثقة⁽²⁾.

الماضي المنسي للتعليم العالي

في تلك البيئة المشحونة، ازدهرت الكتابات التي تروّج لفوائد الإنسانية المعاصرة كما هو متوقع⁽³⁾. يميل المدافعون عن الإنسانية في الكليات والجامعات الأمريكية في الآونة الأخيرة إلى النظر إلى الوراء بضعة عقود فقط من التاريخ التعليمي بغية دعم تأكيداتهم. وهكذا، كما سنرى في الفصل الأول، تميل الدفاعات المنشورة في أعقاب الأزمة المالية عام 2008 إلى تركيز اهتمامها على فترة حروب الثقافة الأكاديمية في الثمانينيات والتسعينيات وما بعدها، وليس على ما قبلها. وخلال الحروب الثقافية نفسها، كان مدى بصر المؤلفين الذين يتنازعون حول دور الإنسانية لا يتجاوز الستينيات⁽⁴⁾. وكان لهذا الأمر آثار حتمية (وضارة) على الحجج المؤيدة للإنسانيات في

(1) انظر مثلاً:

Rawlings and Aoki 2013; Proctor 2014: 10; Jacobs 2015; Zakaria 2015: 19; anonymous 2016; Geiger 2016: 24; Kleinman 2016: 88.

ويحضر كوهان (2012) Cohan على حل أقسام الإنسانية.

(2) انظر مثلاً:

Hutner and Mohamed 2016b: 1-3; Jaschik 2019b. Cf. Melin 2016.

(3) للاطلاع على فحص للعديد من هذه الكتابات الدعائية، انظر الفصل الأول من هذا الكتاب.

(4) عن هذا الموضوع انظر Adler 2016: 9-41. يشير كارنوشان (1993: 2) Carnochan إلى الطبيعة اللاتاريخية لمجادلات الحروب الثقافية حول المناهج الدراسية.

أمريكا؛ إذ غالبًا ما بدت بلا جذور، ولا دراية لها بتاريخ الإنسانيات، ولا وعي بحقيقة أن الخلافات المتعلقة بقيمتها قد انبثقت من قبل - في مواجهة حجج مضادة مقنعة في كثير من الأحيان. إن قصر النظر التاريخي هذا، إن صح التعبير، يترك المدافعين عن الإنسانيات حائرين بلا هدف. إذ يبدو أنهم يعيدون اختراع العجلة باستمرار⁽¹⁾.

إن الميل إلى تجنب الانخراط الجاد في التاريخ الأوسع للإنسانيات يمكن أن يضعف التسويغات المعاصرة للحقول الإنسانية. سيوضح هذا الكتاب أن هناك حالة تاريخية موازية يمكن أن تعلمنا الكثير عن دفاعات الإنسانيات. ففي أواخر القرن التاسع عشر، شهد التعليم العالي الأمريكي ما يسمى بـ«معركة الكلاسيكيات»⁽²⁾. في تلك المرحلة الزمنية، أنفق قدر كبير من الطاقة الفكرية للأمة في الهجوم على دور الإنسانيات والدفاع عنها (التي كان يُنظر إليها عمومًا على أنها الإنسانيات الكلاسيكية)⁽³⁾ في التعليم العالي. وقد ركزت الصحف والمجلات المتنوعة في ذلك الوقت على هذا الموضوع، الذي يبدو أنه استحوذ على اهتمام قطاعات واسعة من جمهور القراء الأمريكيين. كان التقليديون في معركة الكلاسيكيات يأملون في بقاء اللغات الكلاسيكية (التي لا تزال في كثير من الحالات مرادفة لـ«الإنسانيات») باعتبارها الجوهرية للتعليم العالي في الولايات المتحدة. وفي المقابل، كان خصومهم، الذين كانوا يُطلق عليهم في كثير من الأحيان «الحداثيين»، يهدفون إلى إبطال المنهج الدراسي المقرر وهيمنة اللاتينية واليونانية القديمة في الكليات الأمريكية.

(1) يشدد بروكتور 1998 على هذه النقطة فيما يتعلق بالكتابات الدعائية الآتية من حروب الثقافة الأكاديمية.

كان كتابه، في طبعته الأولى، بعنوان «النسيان التام لِماضي التعليم Education's Great Amnesia».

(2) يذُكر رودلف (180: 1977) Rudolph أن تاريخ الكليات والجامعات غالبًا ما يسمي هذا الصراع بهذا الاسم، الذي يقول إنه حدث في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر. ويسميه كيركلاند Kirkland (191: 1965) «الحرب اليونانية». وكما سيأتي، سنوسّع هذا النطاق الزمني قليلاً ليشمل العقود القليلة الأولى من القرن العشرين. وهناك سابقة تاريخية لهذا التوسع: انظر anonymous 1917 بشأن استخدام تعبير «معركة الكلاسيكيات» في مجادلات المناهج الدراسية في العقد الأول من القرن العشرين.

(3) حول التحول في التعليم العالي الأمريكي من مفهوم الإنسانيات القائم على اللغات الكلاسيكية (الدراسات الإنسانية studia humanitatis) إلى المعنى الأوسع الذي بين يدينا، انظر الفصل الثاني من كتابنا هذا.

على الرغم من أن النزاعات المتعلقة بمعركة الكلاسيكيات لا تشبه تمامًا تلك المحيطة بدور الإنسانيات اليوم، فإن فيها دروسًا كثيرة للمدافعين المحتملين عن الإنسانيات المعاصرة. والسبب وجيه: كانت هذه النزاعات حلقة جوهرية احتلت فيها الخلافات حول مكانة الإنسانيات في التعليم والحياة الأمريكية مركز الصدارة. وبالتالي باستطاعتنا تعلم الكثير من حجج الإنسانيات الكلاسيكية في هذه الفترة التي ستكون قابلة للتطبيق بشكل مباشر أو غير مباشر على وضعنا الخاص. ما الذي كان مقنعًا في المواقف التي عرضها المروجون للإنسانيات الكلاسيكية خلال معركة الكلاسيكيات؟ أي من حججهم فشلت في أن يتردد صداها؟ ولماذا؟ كيف يمكن للإنسانيات المعاصرة في التعليم العالي أن تستفيد من فهم هذه النزاعات الحاسمة السابقة؟ على الرغم من أن تحقيقنا سيركز على دور الإنسانيات في الكليات والجامعات الأمريكية، فإن الكثير مما سنكتشفه سيكون أيضًا قابلًا للتطبيق ومهمًا في سياقات تعليمية أخرى. ففي النهاية ليست أمريكا وحدها التي تعاني من أزمة الكلاسيكيات.

سوف يقول هذا الكتاب، من بين ما يقول، باعتماد على تاريخ معركة الكلاسيكيات كجزء من تدليله، إن الدفاعات الإنسانية التي تتجنب المناداة بمحتوى محدد للإنسانيات محكوم عليها بالفشل. إذ إن هذه الحجج، كما سنرى، تتحول حتمًا إلى نظرة للإنسانيات (وبالتبعية التعليم بشكل عام) تختزلها في كونها مجرد قناة لغرس المهارات المختلفة. وسيؤدي التركيز المفرط على المهارات باعتبارها جوهرًا للتعليم العالي إلى الهزيمة.

سوف يؤكد هذا الكتاب أن المدافعين عن الإنسانيات بحاجة إلى التأكيد على أهمية وجود محتوى معين من الإنسانيات في دفاعاتهم. تُثبت معركة الكلاسيكيات باقتدار أن الإصرار على القيمة الفكرية والجمالية والأخلاقية لدراسة الأعمال العميقة في الفن والفلسفة والدين والأدب يظل المبرر الأقوى للإنسانيات المعاصرة. وإذا استمرت مؤسسات التعليم العالي الأمريكية في الاعتماد على مقاربة تدريسية قائمة على المهارات، ولا تحمل أي جوهر، فإن الإنسانيات سوف تستمر في الذبول.

الأهم من ذلك، ورغم آراء العديد من محاربي الثقافة التقليدية، هو أن هذا الإثبات لا يعني أن الإنسانيات يجب أن يقتصر محتواها على المعتمد الغربي دون غيره. إذ

ترتبط الأعمال ذات الأهمية الفكرية والجمالية والأخلاقية العميقة بمجموعة غنية من الحضارات الإنسانية، في الماضي والحاضر. وكما سنرى في الفصل الخامس، فإن أحد المفكرين الذين كتبوا في نهاية معركة الكلاسيكيات قد شق طريقاً للأمام، موضعاً كيف يمكن لمثل هذا التنوع في الفكر والخبرة أن يُستعمل بحق في صميم منهج دراسي مناسب وقوي ويمثل تحدياً أخلاقياً للطلاب. بالإضافة إلى ذلك، هو برهن على أن الصحة المستقبلية للحضارة تعتمد على اتباع مقاربة سليمة للتعليم الإنساني النزعة، التي بدونها يكون البشر في خطر البؤس والفوضى. وكما سندرك، فإن العالم يحتاج عاجلاً إلى إحياء إنساني النزعة.

تقييم معركة الكلاسيكيات

عند دراسة معركة الكلاسيكيات، كيف يمكننا أن نعرف أي الحجج التي قُدمت أثناء النزاعات هي القوية وأيها الضعيفة؟ من الطبيعي أن نحدد ذلك بدرجة كبيرة من خلال التعامل مع الحجج نفسها، وفحص صحتها واختبارها. لكن الردود على مختلف الادعاءات المقدمة في معركة الكلاسيكيات يمكن أن تعيننا بقوة في هذا الصدد؛ فكما سنرى، قوبلت بعض الحجج بادعاءات مضادة مدروسة ومقنعة، بخلاف البعض الآخر. يمكن للمرء أن يحاجج بأن المشاحنات حول دور اللاتينية واليونانية القديمة في المناهج الجامعية الأمريكية خلال أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين كانت مجرد عرض جانبي لتطورات أوسع نطاقاً في الولايات المتحدة. ففي النهاية كانت الولايات المتحدة دولة في عملية تغير، وكان من غير المرجح إلى حد كبير أن تحتفظ بنموذج المناهج الدراسية الذي كان متخذاً قبل التحول إلى الصناعة وتحقيق ديمقراطية أكبر. وكما حدث في أماكن أخرى من العالم، فإن عمليات التحديث هذه استلزمت تغييرات مهمة في طبيعة التعليم. لكن الأفكار مهمة أيضاً. فقد كانت الرؤى الأمريكية للتعليم أكثر بكثير من مجرد انعكاس للقوى المادية الأساسية أو تسويغات فارغة للوضع الراهن الاقتصادي والسياسي. فهل كان التعليم العالي الأمريكي ليرسم المسار نفسه دون العمل الذرائعي instrumental لجون ديوي،

على سبيل المثال لا الحصر؟ كانت الأفكار المتعلقة بالتعليم والإنسانيات مهمة في ذلك الوقت، وهي كذلك الآن.

من المؤكد أن الوضع قد تغير كثيرًا منذ معركة الكلاسيكيات قبل أكثر من قرن من الزمان. ومع ذلك، قد واجه التعليم العالي في ذلك الوقت نقطة تحول مركزية مماثلة في جوهرها لتلك التي يواجهها حاليًا. إن أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحادي والعشرين يُنظر إليهما باعتبارهما عصري العولمة، بما فيهما من طفرات مبهجة في علاقات الأمم والتبادل الاقتصادي والتطور التكنولوجي وسط تغيرات بطيئة ولكنها مهمة في التوزيع العالمي للقوة. وفي كلا العصرين، كانت الإنسانيات موضع تساؤل فيما يتعلق بـ «فائدتها»، في الوقت الذي وفرت فيه قوى العولمة أسبابًا وجيهة لبناء شخصية الشباب الأمريكيين فضلًا عن مهاراتهم المهنية.

خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أراد التقليديون الحفاظ على اللغات الكلاسيكية باعتبارها حجر الأساس للتعليم العالي في الولايات المتحدة. وفي العديد من الحالات (وإن لم يكن كلها)، كان خصومهم يتوقون إلى انفتاح المناهج الدراسية الجامعية، لضمان مكان متساوٍ للعلوم الطبيعية والاجتماعية، بجانب دراسة بعض اللغات الأوروبية الحديثة والمواد المهنية المختلفة.

لقد انقلبت الأدوار اليوم عما كانت عليه أيام معركة الكلاسيكيات؛ فبعد أن كان التحكم التام في يد الإنسانين، هم الآن يضغطون للاحتفاظ بمقعدهم على الطاولة التربوية، في بيئة أكاديمية لا تناسبهم على نحو متزايد. يرى أنصار مجالات STEM (أي: العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات) والمواد المهنية أن تخصصاتهم تهيمن الآن مثلما هيمنت اللغات الكلاسيكية على التعليم العالي الأمريكي المبكر، وأصبح الإنسانيون هم الذين يسعون جاهدين لإثبات أهمية تلك اللغات.

ما الذي قد يخبرنا به هذا التحول المذهل عن أفضل السبل للدفاع عن الإنسانيات في أمريكا؟ ماذا يمكن أن نتعلم من إخفاقات الإنسانين خلال معركة الكلاسيكيات؟ هل تنطبق حججهم اليوم؟ ما الذي تتفرد الإنسانيات بتقديمه؟ وإلى أي مدى يمكن تضمينها في عالم يشهد مرة أخرى تغيرًا سريعًا وعولمة؟

يبحث هذا الكتاب سبب وجود الإنسانيات. ويؤدي ذلك بطريقة تتناغم مع تاريخ وسياسات الأفكار المتنافسة حول سبب أهمية الإنسانيات والدور الذي ينبغي أن تؤديه في التعليم العالي. يستكشف الفصل الأول الوضع الفكري المعاصر للمشهد، من خلال تحليل العديد من الدفاعات عن الإنسانيات التي ظهرت في أعقاب الانهيار المالي العالمي عام 2008. إنه يُظهر أن هذه الدفاعات في غالبيتها العظمى تجادل عن الحقول الإنسانية بمبررات مختلفة قائمة على المهارات. ويسلط هذا الفصل الضوء على نقاط الضعف المرتبطة بهذا النهج، وعلى هشاشة هذه الحجج حسنة النية. كما يشير أيضًا إلى العديد من حالات سوء الفهم والانطباعات الخاطئة الموجودة في الدفاعات المعاصرة، مما يدل على الحاجة إلى تقديم حجة للإنسانيات أكثر استنارة بالتاريخ.

يساعد الفصل الثاني في إمدادنا بالخلفية التاريخية التي تشد الحاجة إليها. من خلال رسم مسار الإنسانيات من العصور القديمة الرومانية إلى الوقت الحاضر، فهو يمنح القراء إحساسًا دقيقًا بما كانت عليه الإنسانيات وما هي عليه اليوم. وهذا يعين الذين يحاولون تعريف الإنسانيات المعاصرة، ويساعد على التمييز بين مفهوم عصر النهضة للدراسات الإنسانية *studia humanitatis* وتقليد الفنون الليبرالية الأوسع. ويركز الفصل أيضًا على التحول الذي حدث خلال القرن التاسع عشر في فهمنا للإنسانيات. في هذا الوقت، أتت الإنسانيات من المفهوم الذي احتضن في السابق اللغات الكلاسيكية فحسب لتتخذ معناها الحالي الأكثر اتساعًا. إن إعادة التصور الأساسية هذه تجعل من الصعب للغاية الدفاع عن الإنسانيات اليوم. ومن خلال تناول الخطوط العريضة لمعركة الكلاسيكيات، يعزز الفصل أيضًا بعض نقاط الضعف الملازمة للمبررات القائمة على المهارات للإنسانيات. فقط بإحضار هذه المعرفة بين أيدينا يمكننا أن نحاول تقديم حجة مقنعة للإنسانيات المعاصرة.

ثم يتحول الكتاب إلى دراسة ثلاث حلقات رئيسية في معركة الكلاسيكيات. إذ يحلل الفصل الثالث الضجة التي أحاطت بخطبة عضو جمعية فاي بيتا كابا Phi Beta Kappa، تشارلز فرانسيس آدامز الابن Charles Francis Adams, Jr.، التي ألقاها في جامعة هارفارد عام 1883. لقد أحدثت خطبة آدامز، التي حملت عنوان «وثن جامعي

A College Fetich»، جدلاً فكرياً شرساً، حيث ناقش المتحاورون بحماس دعوة آدامز لإنهاء اشتراط اليونانية القديمة للقبول الجامعي. يسלט الفصل الضوء على الطبيعة الهجومية لخطاب آدامز، التي اعتمدت على تاريخ عائلة آدامز أكثر من الدقة الحجاجية. ولكنه يُبرز أيضاً نقاط الضعف في العديد من الردود التقليدية على آدامز، ويسلط الضوء على اعتماد هذه الردود على الطائفية المسيحية والمبررات القائمة على المهارات. ومن خلال تقديم مثل هذه الحجج، كان ما قدمه أنصار الإنسانيات الكلاسيكية في صالح خصومهم دون قصد منهم.

يمكن استخلاص استنتاجات مماثلة من حادثة بارزة أخرى في معركة الكلاسيكيات، الحادثة التي هي محور الفصل الرابع. ففي 24 فبراير 1885، تناظر جيمس ماكوش James McCosh، عميد كلية نيوجيرسي New Jersey (جامعة برينستون Princeton الآن) وتشارلز وليام إليوت Charles W. Eliot، عميد جامعة هارفارد، في المزايا النسبية للمناهج الدراسية المقررة والنظام الاختياري للمناهج في مدينة نيويورك. شارك في هذا الجدل اثنان من عمالقة معركة الكلاسيكيات: فقد كان إليوت قد أثبت نفسه بالفعل باعتباره المدافع الأنشط والأبرز عما يسمى بالنظام الاختياري الحر، وكان ماكوش قد تبنى نسخة مخففة من الحججة التقليدية. على الرغم من أن حجج إليوت تعاني من عيوب خطيرة، فإن الفصل يزعم أن ماكوش فشل في اصطياح العديد منها. فقد تنازلت دعواه، مثل الكثير من الردود على إليوت خلال معركة الكلاسيكيات، عن مساحة كبيرة لخصمه، واعتمدت بإفراط على رؤية شاملة طائفية وعلى حجج قائمة على المهارات من أجل الدفاع عن اللغات الكلاسيكية باعتبارها تُحقق «الانضباط العقلي».

يتناول الفصل الخامس المجادلات الساخنة التي دارت حول عمل شخصية غالباً ما جرى تجاهلها رغم أهميتها في تاريخ الإنسانيات في أمريكا. كان الناقد الأدبي والاجتماعي إيرفينغ باييت Irving Babbitt، الذي أحدثت آراؤه ضجة فكرية مفعمة بالحيوية في العقود الأولى من القرن العشرين، هو المفكر الأهم من بين المفكرين المرتبطين بحركة تسمى «النزعة الإنسانية الجديدة New Humanism». يزعم الفصل الخامس أن باييت صاغ الحججة الأكثر إرضاءً ضد معارضي المنهج الدراسي الكلاسيكي،

الحجة التي سلطت الضوء على الأهمية الجوهرية للتقليد الإنساني لاستمرار الازدهار الحضاري. على الرغم من أن بايت غالبًا ما يُنظر إليه اليوم على أنه رجعي، فإنه كان في كثير من النواحي مفكرًا سابقًا لزمانه، حيث قدم مقارنة أشمل للنزعة الإنسانية تتطلع إلى ما هو أبعد من أصولها الغربية. يشدد الفصل أيضًا على أن خصومه، على الرغم من كتابتهم لانتقادات تدم عمل بايت، فشلوا في التصدي بنجاح للأساس الفكري والأخلاقي لمقاربتهم للتعليم العالي. لكن لسوء الحظ، خفف إنسانيون جدد آخرون، بول إلمر مور Paul Elmer More ونورمان فورستر Norman Foerster بالأساس، رسالة بايت، بالاعتماد إلى حد كبير على مبررات مبنية على المهارات، المبررات التي أصاب بايت في التقليل من قيمتها.

يستعمل الفصل الأخير أفكار بايت باعتبارها نقطة انطلاق لنهج سليم فكريًا وأخلاقيًا في الإنسانيات المعاصرة. على الرغم من أن بايت -وبشكل أعم التقليديين خلال معركة الكلاسيكيات- لم يقدم دفاعًا عن الإنسانيات مناسبًا تمامًا ليومنا وعصرنا، إلا أن مقاربتهم العالمية وواسعة الأفق نسبيًا يمكن أن تساعد في تأسيس مبرر معاصر يكون جديدًا ومرضيًا في الوقت نفسه. يرى الفصل السادس أن الإنسانيين المعاصرين يجب أن يؤكدوا على الأهمية المركزية لموادهم جزئيًا بأن يعبروا عن الطرق التي تساعد بها الروائع الثقافية (من كل التقاليد الفكرية، وليس فقط التقاليد الغربية) في تنشئة بشر أفضل. إن الاعتماد على مقارنة قائمة على المهارات (غامضة التعريف) للإنسانيات المعاصرة يخفف من أهمية التقليد الإنساني، ويعزز عن غير قصد القيمة العليا للعلوم الطبيعية والاجتماعية. تتمتع الدفاعات المبنية على الجوهر التربوي أيضًا بميزة تشجيع حدوث ثورة في فصول الإنسانيات: إذ ينبغي عليها أن تحث على مقارنة إنسانية النزعة حقًا لدراسة الأدب والفلسفة والدين والفنون كقنوات للطلاب نحو التفكير في الأسئلة الكبرى للحياة، وتقود في النهاية إلى حياة أكمل.

غني عن القول أن البيئة المشحونة للإنسانيات اليوم تجبر الإنسانيين على حشد أنواع متباينة من الحجج لدرء زوال حقوقهم. ستتطلب الظروف المختلفة -

والجماهير المختلفة- استخدام تكتيكات مختلفة⁽¹⁾. وعلى الرغم من هذه الحقيقة البديهية، سيوضح هذا الكتاب أن معركة الكلاسيكيات تشير إلى أساس واعد للدفاع عن الإنسانيات المعاصرة. يجب على المدافعين عن الإنسانيات حاليًا أن يدركوا أن جوهر التعليم الإنساني النزعة ذو أهمية عميقة. وكما سنجادل في الفصل الأخير، لا ينبغي أن يستلزم هذا مجرد تغيير في التكتيكات الحجاجية من جانب الإنسانين الأمريكيين، ولكن أيضًا تحول في استراتيجياتهم التربوية ومطالبة بنماذج لمناهج دراسية أكثر توافقًا مع روح النزعة الإنسانية. وفي نهاية الكتاب، نستنتج أن أي شعب مهتم بالازدهار الفردي والحضاري، بغض النظر عن التزاماته السياسية، يجب أن يدرك الدور الحاسم للإنسانيات في التعليم المعاصر.

(1) انظر النقطة القيمة التي أشارت إليها سمول (2013: 3): لا يوجد دفاع سحري عن الإنسانيات يمكن تقديمه من شأنه استرضاء كل النقاد المحتملين.